ترجمة الألفاظ وترجمة المفاهيم

" العلمانية " نموذجا*

عبد الله العروي

أود قبل كل شيء أن أقول إن الموضوع الذي أدعوكم إلى مناقشته اليوم لا يتعلق بمفهوم العلمانية، فهذا موضوع طويل عريض ويمكن أن أتصدى له لاحقا. لكن ما يهمنا هو الملفوظ في حد ذاته. لذلك قابلت في هذه الكلمة بين تعريب الألفاظ وبين تعريب المفاهيم، واتخذت العلمانية مثالا. من المصادفات أنني فتحت جهاز التلفاز بالأمس، على قناة الجزيرة فكان هناك كلام طويل عريض حول العلمانية. وكما هي عادة هذا البرنامج كان هناك شخصان وقُدِّمَ كل واحد منهما على أساس أن أحدهما علماني والثاني إسلامي.

إن العقلية المتداولة الآن في المجتمع العربي تقول بأن هناك تعارضا بين الكلمتين: علماني يعارض إسلامي. والنقطة التي أود أن أناقشها اليوم هي فحوى هذه المعارضة ومن أين جاءت، لأن كلمة ***إسلامي*** لا تقابل كلمة ***علماني***، ونعرف أن هناك تعارضات كثيرة في هذا المجال. فما يعارض الإسلام كما في الكتب التي نعرفها هو لفظ الجاهلية أو الزندقة أو الكفر. كذلك، وكما سنرى ذلك لاحقا، ما يعارض كلمة علمانية شيء آخر، سنتحدث عنه بعد قليل. فماذا حدث في مجتمعنا حتى أصبح هناك تعارض لغوي ومفهومي بين علماني من جهة وإسلامي من جهة ثانية؟

كل نقاش البارحة في قناة الجزيرة لم يكن في محله. فقد كان هناك خلط كبير عند مقدم البرنامج بين المفكر الإسلامي وبين المفكر العلماني. وفي رأيي، فإن هذا الخلط الكبير مبني على نسيان أصول ملفوظ علماني نفسه. أظن أني قد وضحت ما أريد قوله في هذه الكلمة.

لنبدأ أولا بأن نضع أنفسنا في موقع المعرب، ذاك الذي ينقل من لغة إلى أخرى، وموقع القارئ العربي. طريق الاثنين مختلف : المعرب يبدأ من المفهوم من المعنى إلى اللفظ. والقارئ، على العكس، يبدأ

من اللفظ إلى المعنى. صحيح أن المعرب يكون قارئا فينطلق من الملفوظ أيضا، لكن هذا الملفوظ ليس هو ما يهمه، فهو يحاول من خلاله أن يدرك معنى ما، ثم يحاول أن يجد لهذا المعنى ملفوظا يناسبه. يبدأ كقارئ ولكنه لا يكون معربا إلا عندما يبحث، وقد يجد أو لا يجد المقابل للكلمة التي يستظل بها والتي تشير إلى دلالة معينة. وعندما يجد الكلمة فإنه يستعملها. وإذا تعذر عليه ذلك، فإنه يحاول أن يشتقها حسب القواعد المعروفة عند النحويين واللغويين، وإذا لم يجدها أو لم يستطع ذلك فسيستعمل أو يستعير من الأجنبي كما هو متعارف عليه.

أما القارئ، فإنه يجد نفسه أمام الكلمة، الملفوظ، ومن هذه الكلمة يدرك المعنى. وما هو أساسي هو معرفة وجود مطابقة أو فرق بينهما؟ وإذا كان هناك فرق فما مدى أهمية هذا الفرق بين المعنى الأول والمعنى الثاني الذي يصطدم به المعرب والمعنى النهائي الذي تنتهي إليه الكلمة عند القارئ؟

إذا كان هناك تماثل كانت الترجمة في غاية الجودة، وهذا لا يحدث إلا نادرا، وإذا كان الفرق ضئيلا أو مقبولا فلا مانع. أما إذا كان الفرق مختلفا تماما وشاسعا، بدأنا بمعنى وانتهينا إلى معنى آخر، وهنا مكمن الخلط.

ولنأخذ مثال كلمة ***دين***. إذا وجد المعرب أمامه كلمة religion وكان لا يعرفها فإنه سيستعين بالقاموس :religion منحدرة من اليونانية religio وتعني أساسا علاقة : الظاهر بالباطن، القوى المرئية بغير المرئية الخ. فهي عنده كلمة يعرف ماذا تعني وهي كلمة ***دين***، ولكنه عندما يبحث عن جذور هذه الكلمة يجد أنها مأخوذة إما من ديْن أو من كلمة الطريق حسب الاشتقاقات المختلفة. فلا علاقة بينها وبين religion .

ولكن الاستعمال هو الذي جعلنا نقابل religion بـ***دين***. وعندما نضع هذه المساواة بين religion و***دين*** لا نبحث عن أصول كلمة religion في مجالها اللغوي. ولنأخذ كذلك عملة : الدولار في مقابل الدرهم. هل نحن في نفس المستوى فيما يتعلق بكلمة علمانية ؟ لو كانت كلمة علمانية متساوية بالتوافق والاستعمال لكلمة أخرى أجنبية فما هي؟ وقبل كل شيء: استعمال كلمة علمانية مقابل كذا.

لو كان الأمر كذلك لما كان موضوعا لهذا النقاش. وهذا هو أصل المشكلة. كيف ذلك؟ أولا لا ندري متى بدأ استعمال مفهوم العلمانية. فلم يقع هناك بحث علمي في القواميس والجرائد حتى نعرف متى بدأ. وهو أمر يمكن تعميمه على مفردات أخرى كالدستور والديمقراطية الخ. فكثير من

الكلمات التي نستعملها لا نعرف كيف بدأت وكيف نشأت وهو أمر يخص كلمات تنتمي إلى العربية أيضا كالمسجد والرحمن والله الخ..

هذه أمور أساسية في الفكر. فهناك نقاش حول الاشتقاق. ففي الآونة الأخيرة، بدأ البعض يقول إن كلمة العلمانية مشتقة من العالم. فهناك كلمة monde اشتقت منها كلمت mondanité الدالة على الأشياء الخارجة عن الدين. وهو الأمر الذي نعثر عليه في الإنجليزية مثلا. فقالوا ربما من هنا اشتقت كلمة عالمانية ثم اختزلت في عَلمانية ويجب النطق العَلمانية، وتكون العلمانية هي إذن الكلمة المقابلة ل mondain و mondanité، وهي كلمات دالة على الأمور التي تهم الدنيا ولا تهم الدين. وهنا سيكون التقابل بين علمانية ودينية: دنيوية ودينية religieux vs mondain.

لكن هذا التحليل يبدو متأخرا. أولا لأن الاشتقاق المعتمد اشتقاق على غير قياس، عالم بالألف تصبح علمانية، ثم لو كان هو أساس الاشتقاق لما وقع الانحراف الذي لحقه فيما بعد والذي هو أصل كل هذا الخلط الفكري الذي لم نخرج منه إلى اليوم.

والأقرب إلى الظن أن علمانية مشتقة من علم، فهي ليست مقابلة لscientifique علمي، بل ل scientiste. لذلك أضفنا هذه الألف إلى العلمانية. والأمر شبيه ب rationalisme عقلانية و rationnel عقلي.

هذا أمر مفهوم، لكن ما هو المجال الذي ظهرت فيه هذه الكلمة؟ فنحن لا يمكن أن نفهم مدلول لفظ إلا إذا استحضرنا الجو الثقافي الذي ظهر فيه هذا المصطلح. وهنا يجب أن نعود إلى التاريخ. والأمر يتعلق بتصور شخصي ليس مبنيا على بحث دقيق، وإنما هو اجتهاد وأقدم إليكم اليوم هذا الاجتهاد.

في رأيي يجب العودة إلى الجو الذي ظهر فيه المصطلح. وهي فترة يمكن تحديدها في أواسط القرن التاسع عشر أو الثلث الأخير منه. وتم ذلك في مجتمع كان أغلبه من الشوام اللاجئين إلى مصر، وأغلبهم من المسيحيين مثل يعقوب صروف وشبلي شميل وفرح أنطون. فهؤلاء عاشوا في كنف مصر الخديوية إبان الحماية الإنجليزية لمصر. لقد أخذوا على عاتقهم تنوير المجتمع المصري وهو مجتمع مسلم تقليدي. لقد أصدروا مجلة **المقتطف** التي كان يديرها يعقوب صروف. والتنوير بالنسبة إليهم يمر عبر التعريف بمنجزات العلم الحديث ومن بين هذه المنجزات كان هناك كلام مسهب.

وهو نقاش كان يدور في أوروبا نفسها حول كتاب أصدره داروين حول أصل الأنواع. لقد انقسم الناس فيما بينهم، وبينما دافع العلماء عن هذا الكتاب، وقفت الكنيسة ضده. فالكتاب يفسر

تطور الحياة على الأرض ويميز بين الأنواع على أساس الملاحظة والكشوفات العلمية، ويرد ذلك إلى أسباب مادية. وهذا التفسير يتناقض بطبيعة الحال مع ما تقول به التوراة، والكنيسة كانت تتشبث بموقفها، وأقول الكنيسة وليس الدين، لأن الدين سينفصل ويستقل عنها ويقول إن ما جاء في التوراة هو قصة تصويرية أو هو أمثولة لتقريب المعنى من أفكار العوام.

هناك تفسير علمي، علماني وهناك تفسير كنسي ومن هنا ظهرت العلمانية. الكنيسة تقدم تفسيرا وتقول إنها تتكلم باسم العقيدة وما تقوله هو الحق ولا يقبل النقاش. في حين هناك في الجانب الآخر التفسير العلمي الذي يقول هذا ما تدعو إليه الملاحظة والاستنتاج العقلي. حينئذ تكون العلمانية قد ظهرت في إطار هذا النقاش الذي بدأ في فرنسا وإنجلترا على الخصوص، وانتقل عن طريق المترجمين والمصلحين الذين تكلمت عنهم إلى الشرق، مصر وبلاد الشام. فستقولون لي وأتساءل معكم كيف حصل أن هذا المفهوم الذي ظهر في إطار العلم الذي يبحث في الحياة وتطورها على وجه الطبيعة، وهي مسألة علمية متعلقة بالملاحظة والاستنتاج، تحول إلى معارضة، ليس بين التفسير العلمي والتفسير الكنسي، بل بين العلم والدين؟

لا نفهم هذا الانزلاق من مجال مفهوم إلى مجال آخر إلا بالعودة إلى التاريخ. لقد كان هناك تدخل لأشخاص لا علاقة لهم بهذا النقاش نسميهم إما أزهريين أو محمديين ويمثلهم على الخصوص محمد عبده. من ذلك، النقاش الذي دار بين محمد عبده وفرح أنطون. هذا الانزلاق الذي حصل على يد محمد عبده لم يحصل في الشرق فحسب، بل حصل في أوروبا أيضا؛ لأن المدافعين عن التفسير الكنسي وضعوا المشكلة في إطار التناقض بين العلم والعقيدة، مع أن هذا ليس هو موضوع كتاب داروين وأمثاله. إن كتاب داروين يقول هذا ما تدعوني إليه الملاحظة، وإذا كانت عندكم ملاحظة أخرى فتفضلوا بها، إذا كان عندكم استنتاج غير الاستنتاج الذي أقدمه فتفضلوا. أما كون هذا التأويل يعارض ما تقول به الكنيسة منذ زمن بعيد فهذا نقاش آخر ليس لي أنا كعالم التدخل فيه، فافعلوا فيه ما تشاؤون. طبعا لم تقبل الكنيسة هذا الكلام. فهذا النقاش انتقل إلى الشرق أيضا وبدأ محمد عبده مثلا ينقل كلاما حول الحياة من منظور التفسير العلمي للظواهر الطبيعية إلى وضع العقيدة في حياة الإنسان.

هنا لا بد من التذكير بشيء، ويتعلق بالأسباب التي دفعت محمد عبده إلى اتخاذ هذا الموقف. لقد كان محمد عبده من أتباع جمال الدين الأفغاني. والأفغاني عاش في الهند، وفي الهند تصادم مع مصلحين هنود كانوا يدافعون عن نفس الأفكار التي دافعت عنها جماعة **المقتطف** ثم أراد محاربتهم

فماذا سماهم ؟ لم يسمهم لبراليين مع أنهم كانوا كذلك، و لم يسمهم علمانيين، بل لقد أطلق عليهم الدهريين كالرد على الدهريين. ففي ذهن محمد عبده كانت هناك مرادفة بين علماني ودهري. وبما أن تكوينه تكوين تقليدي، فإن الدهرية مفهوم معروف، وهذه الدهرية معارضة للعقيدة وللدين وللتوحيد. وهكذا أصبحت **علمانية** مناقضة ل**عقيدة**. وأصبح الكلام عن المعارضة كلاما عن غير المعارضة الأصلية.

هذا الخلط الأساسي ناتج عن الترجمة، لأن المترجم له خلفيات مسبقة تتحكم فيه وتوجه ما يقرأ. فهذه الخلفية نلمسها في موقف محمد عبده عندما يرد على فرح أنطون. ينطلق من مصطلح إلى مصطلح آخر لم يتكلم عنه فرح أنطون، أو تكلم عنه بشكل عرضي، ولكنه أصبح عند محمد عبده هو الأساس. هذا المستوى هو مدخل فقط. لأننا نصل الآن إلى لب القضية، نحن لا زلنا في لباس المترجم. فالجو الثقافي العام أصبح فيه من المتعذر إرجاع مفهوم أو ملفوظ ***علمانية*** من المستوى الذي وضعه فيه محمد عبده إلى المستوى الأصلي. القارئ الآن ترسخ في ذهنه ما يلي : علماني تساوي دهري والدهري معارض لإيماني إسلامي / إذن علماني معارض لإسلامي.

نحن الآن لازلنا في لباس المترجم / فماذا يحدث عندما نقرأ نصوصا أوروبية مكتوبة بالفرنسية أو الانجليزية. ماذا نجد ؟ هناك تقابلات من قبيل :

Sacré vs profane
Spirituel vs temporel
Ecclésiastique vs laïc
Régulier vs séculier
Solitaire vs mondain
Solitude vs mondanité

فما معنى هذه الثنائيات؟ المترجمون يقولون sacré هي مقدس و profane هي مدنس. لا هذا صحيح ولا ذاك. لأن معنى sacré ليس مقدس، بل مبارك، لأن البركة هي ما يغير من حالة الشيء، عندما نقول بارك لي في هذا الشيء، فمعناه تحويله من حالته الطبيعية إلى حالة أخرى غير طبيعية، كما أنك عندما تبدأ بشيء تقول باسم الله، فعندما نتهيأ للأكل نقول : باسم الله. المسيحي يقول au nom du Père du Fils et du st Esprit، وتكون في الحالتين معا كأنك تقول هذا الشيء الذي آكله كان على حالته الطبيعية والآن أصبح على حالة مباركة. وضمن هذا تدخل أيضا تعابير من قبيل: الأرض

المباركة، فالأرض قبل إبراهيم كانت عادية وجاء إبراهيم فأصبحت أرضا مباركة. لذلك فإن كلمة sacré تحيل على معنى يقارب مفهوم البركة عندنا، ولكننا نحن لا نستعمل هذه الكلمة.

أما مدنس فلا يمكن أن يكون مقابلا لprofane، لأن هذه المكلمة مشتقة مما يلي : pro وتعني قبل المعبد و fane وتعني المعبد. أي أنك خارج المعبد تكون في حالة طبيعية، وعندما تدخل المعبد تصبح في حالة أخرى.

وهو ما يعني أنك عندما تكون خارج المعبد تكون في حالتك الطبيعية، وعندما تدخل المعبد تصبح في حالة ثانية. وهو ما يصدق وأنت تتهيأ للصلاة في المسجد، فأنت تتوضأ ليصبح جسمك غير الجسم الطبيعي، أنت لا تزيل الأوساخ، والدليل على ذلك التيمم. فالتيمم لا يزيل أي وسخ، وحتى الوضوء لا يزيل أي وسخ. عندما تتوضأ تصبح جزءا داخل هذه المقابلة، sacré vs profane.

أما الثنائية temporel vs spirituel ف temporel مأخوذة من temps الزمن، والزمن والدهر شيء واحد. Spirituel روحي وما يقابل الروح هو المادة أو لنسمها "دهري". ما يقابل laïc هو ecclésiastique وهي جماعة الكنيسة. فأنت إما داخل الكنيسة أو خارجها. أنت مسيحي ولكن إذا كنت داخل الكنيسة فأنت ecclésiastique أما إذا كنت خارجها فأنت laïc. وهذا لا يعني أنك خارج الدين، هذا لا علاقة له بذاك. إذا قلنا إن المؤمن الصادق يكون داخل الجماعة، إذا كنت داخل الجماعة فأنت مشارك، وإذا كنت خارجها فأنت منفصل.

أما الثنائية Régulier vs séculier فإنها ثنائية خاصة بالكنيسة. فإما أنك عضو في الكنيسة، الرهبنة التي لها قواعد خاصة، وإما أنك تعيش في الدهر. Retraité solitaire منعزل عن الدنيا أو أنك مشارك فيها mondain. ها أنتم ترون أن هذه الثنائيات لا علاقة لها بالعقيدة، ولا بما يسمى الغيبي، هذه أمور لها علاقة بنظام اجتماعي : هناك المجتمع وهناك الكنيسة. المجتمع له قواعد والكنيسة لها قواعد أخرى. فما هي مقابلات هذه الثنائيات في العربية؟ لن ندخل في التفاصيل وسنقترح بشكل تقريبي ما يلي :

كنسي م مجتمعي

روحي م مادي

مهاجر م مخالط

المهم هو أن هذه الجوانب الفكرية لا علاقة لها بالتفسير العلمي للكون. وإنما لها علاقة بالمجتمع والسلطة داخل هذا المجتمع.

قد يقال الآن إن هذه الثنائيات موجودة في المجتمع المسيحي، فهو الذي يميز بين الدين والدنيا. ونحن لا نجد في الإسلام هذه الثنائيات لأن كل شيء واحد. وحينئذ تابعوا معي. بما أننا نقول إن هذه الثنائيات غير موجودة في الإسلام فيحق لنا أن نقول إن هناك تناقضا بين ما هو مجتمع مسيحي وبين ما هو مجتمع إسلامي. وبما أن المجتمع المسيحي يقول بالثنائيات، فسنطلق عليه "مجتمع علماني" ونعارضه بالمجتمع الذي لا يقول بالثنائية، وهو المجتمع الإسلامي، ونقول: المجتمع الإسلامي لا يقول بثنائية السلطة، إنه موحد، مقابل المجتمع المسيحي الذي هو ثنائي ويقول بثنائية السلطة. ها أنتم ترون كيف تطور الدين من ثنائية داخل المجتمع الأوروبي بين سلطتين فعليتين إلى تناقض بين المسيحية ككل، وهي التي تقول بالثنائية وبين الإسلام ككل الذي لا يقول بالثنائية يقول بالوحدانية. وهذا انزلاق آخر.

نحن، كمؤرخين، مقيدون. قد يكون ما يقال صحيحا. بما أن هذا الانزلاق يعتمد على شيء قديم وقع في الأندلس وغيرها. نسأل المؤرخين: هل يقول المجتمع المسيحي بالثنائية، وهل المجتمع الإسلامي التاريخي عاش على أساس الوحدانية؟ هذه قضية يفصل فيها المؤرخون، ولا علاقة لها بما تؤمنون به وبما أومن به. هنا سأقوم بتجربة سأقرأ مقتطفا وأطلب من أحدكم أن يقول لي من يكون كتب هذا المقتطف :

" المجتمع البشري كل بالنظر إلى أجزائه، لكنه في نفسه جزء من كل أكبر، فهو مجموع دول وشعوب، ولكنه جزء فقط من الكون.

بناء على هذا، بما أن الأجزاء الدنيا من المجتمع البشري منتظمة به، فهو أيضا ينتظم بما فوقه، أي بالكون. لكن الأجزاء لا تنتظم إلا تبعا لمبدأ واحد حسب ما قررناه سابقا. فالمجتمع البشري ككل ينتظم هو الآخر على أساس مبدأ واحد أي عبر المتحكم فيه أي الرب الذي يمكن الحاكم.....

ومن هنا نستخلص أن وحدة الحكم هي أساس سعادة البشر، الدول والقبائل منتظمة في مجتمع، والمجتمع البشري هو كل بالنسبة للأجزاء. ولكنه جزء بالنسبة لأجزاء الكون. وبما أن الأجزاء – الدول والقبائل– منتظمة بالمجتمع البشري ككل، فالمجتمع البشري كجزء منتظم بمبدأ واحد هو المتحكم في كل شيء.

من كتب في نظركم هذا المقتطف ؟ (قدم بعض الطلبة أسماء هيجل توماس الأكويني وكانط.....)

الذي كتب هذا الكلام هو دانتي. ودانتي يقول في معارضته للكنيسة لا بد أن تكون هناك سلطة واحدة تحكم المجتمع البشري وفيها ستكون سعادته، وهذه السلطة هي السلطة الوحيدة هي سلطة الإمبراطور.

مثال ثاني وسأطلب منكم التعرف على قائله.

" مصيبة المجتمع الفلاني أنه لم يعرف أبدا طبيعة وحدود سلطة الكنيسة والسلطة المدنية. وأصل هذا التمييز الذي هو ركيزة أمن واستقرار الشعوب الذي يتحصل في الدين كما في العقل وفي الطبيعة."

لا أسألكم من كتب هذا الكلام بل أسألكم عن أي مجتمع يتكلم؟

(الطلبة: المجتمع الإيطالي، المجتمع الفرنسي، المجتمع الإسلامي)

نحن نقول إن المجتمع الأوروبي هو الذي يعترف ويقول ويطبق ثنائية السلطة لذلك نرى دانتي يطالب بعكس ذلك ويفسر بكلام واضح أن سعادة المجتمع هي في وحدة السلطة بالنسبة لمجتمعه هو.

ونرى مونتسكيو يقول إن مصيبة المجتمع الفلاني أنه لم يعرف التمييز

المجتمع الأوروبي هو الذي عرف التمييز، أي هو من يميز بين السلطتين. لهذا، لا يمكن أن ينطبق هذا الكلام على المجتمع الإسلامي. لكن مونتسكيو هنا لم يكن يتكلم عن المجتمع الإسلامي، بل تكلم عن المجتمع البيزنطي ويعارضه بالمجتمع اللاتيني. يقول مونتسكيو إن المجتمع الغربي المسيحي عرف تمييزا بين السلطتين والمجتمع البيزنطي أي المسيحي اليوناني لم يعرف هذا التمييز وكانت هذه مصيبته. وبالطبع هذا الكلام لا ينطبق أيضا عند مونسكيو على المجتمع الإسلامي.

النقطة التي أود أن أوضحها هي أن الزعم بأن المسيحية تعترف وتعتمد ثنائية السلطة أمر غير صحيح في كل الأحوال. إن فساد هذا الرأي يؤكده مثال دانتي، فهو يبرز العكس ويشهد على ذلك أيضا مثال مونتسكيو، فهو يثبت أن هناك مجتمعا مسيحيا لم يعرف أبدا التمييز بين السلطتين. هذا جانب؛ والجانب الآخر، هل صحيح أن المجتمع الإسلامي أحادي السلطة ؟

وهذا ما يكتبه الفقهاء منذ زمن بعيد ويستشهد عليه ببعض الأقوال : أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم ولا تفرقوا وتذهب ريحكم إلى آخره. لكن لو كان هذا صحيحا لما كانت الدعوة إلى ذلك، الدعوة شيء آخر. دانتي أيضا طالب بالوحدة لكنها لم تتحقق، وحدة السلطة لم تتحقق في أوروبا. كبار المفكرين منهم هوبز ومنهم روسو طالبوا بهذا وقالوا إنه ضرورة من ضرورات المجتمع.

هذه دعوة فقط. فهل تحققت وحدة السلطة في الواقع الذي عاشه التاريخ الإسلامي ؟ لو كان الأمر كذلك لما تكلمنا عن الدنيا والآخرة. نقول دائما: حكم الدنيا وحكم والآخرة. إذن عندما نقول: اِعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، معناه أن منطق الدنيا ليس هو منطق الآخرة. هذا أمر نعترف به، والكلام طويل عند الفقهاء عن العبادات والعادات. الفرق بينهما في الفقه وخاصة عند المذهب المالكي كبير، هناك فرق شاسع. و الفرق بينهما كالفرق بين الظاهر والباطن، فقه الظاهر وفقه الباطن.

هل عندما نتكلم عن ذلك نقول أقوالا صحيحة أم أن الأمر يتعلق بلغو؟ عندما نميز بين أعمال القلب وأعمال الجوارح، أنميز بينهما أم لا نميز ؟

وكذلك الأمر في الفقه والتصوف، الفقيه عنده منطق والمتصوف عنده منطق آخر، في كل بداية كتابة عن التصوف نلاحظ هذا الفرق. يقول المتصوف لا أعارض الفقه الظاهر، لكن للقلب منطق آخر. عندما نقول يصنع الله بالسلطان ما لا يصنعه بالقرآن، أنقول هذا أم لا نقوله؟

التمييز بين الشريف وبين العامي. من هو الشريف ومن هو العامي؟ تذهب عند الشريف وتقول له بارك في هذه الكأس

(بخ عليه). أنت تعترف أن في الشريف شيئا من البركة Sacré

ها نحن وصلنا إلى مسألة sacré وprofane .

كتاب مثل الأحكام السلطانية للماوردي، هل هي أحكام قرآنية؟ ماذا يقول الماوردي؟ يقول الماوردي الآن حصل أنه لا بد للإمام أن يفوض السلطة للأمير الذي له القوة على الحفاظ على دار المسلمين. هذا هو كلام الماوردي، لكن يجب ألا يكون هذا التفويض بشروط؟ الخليفة العباسي، وقد يكون السلطان البويهي أو السلجوقي أو أي سلطان آخر. وهناك مثال آخر؛ هذا السلطان مولاي الحسن الأول يكتب رسائل متعددة إلى القناصل، يكتب للقنصل في طنجة : يجب أن تفسر للأجانب أن هناك قواعد شرعية وهناك قواعد مخزنية. وهناك أيضا مثال السياسة الضريبية؛ هناك ضرائب شرعية وهناك ضرائب مخزنية. نميز أو لا نميز ؟ قد يقال هذا كلام.

الآن لا أطلب منكم أن تقولوا لي من كتب هذا الكلام ؟ هذا أكبر مفكر بحث عن أصول الأحكام وهو **الشاطبي** في كتابه ***الموافقات*** الذي سأقرأ عليكم فقرة منه، وهو ليس وحده من يقول بهذا الكلام. فماذا يعني هذا الكلام ؟ "

إن الأحكام المكية هي الأحكام المأخوذة من السور المكية في القرآن، السور الأولى. الأحكام المكية مبنية على الإنصاف من النفس وبذل مجهودا في الامتثال بالنسبة لحقوق الله أو الحقوق الآدمية. وأما الأحكام فمترلة في الغالب على وقائع لم تكن فيما تقدم من بعض المنازعات والمشاحات، والرخص، والتخفيفات، وتقرير العقوبات – في الجزئيات لا الكليات.

هذا الكلام لا ضرورة لإعادته. هذا معناه أن هناك فرقا بين الأحكام المكية والأحكام المدنية. هنا المدنية نسبة إلى المدينة يثرب. ولكن يمكن أن نفهم المدنية civil هذه هي الموافقات. الأحكام المدنية موقوفة على الجزئيات. والأحكام المكية متعلقة بالكليات، أي المبادئ les principes. فهذا الفقيه يعترف أنه من الممكن، ولا نقول من الضروري، التمييز في القرآن بين المبادئ المأخوذة من السور المكية وهي مبادئ عامة، ونميزها عن الأحكام المخصصة التي هي أحكام مدنية. إذا قمت بهذا التمييز وهو يعترف به، هل تتصورون ماذا يمكن استنتاجه من كل هذا على كل المستويات ؟

هناك إذن فسحة لا حدود لها لإنشاء فقه جديد يتطابق مع ضروريات الحياة اليومية و مبنية على هذا التمييز. المهم هو هذا التمييز الذي نقول إنه خاص بالديانة المسيحية وهو موجود عندنا.

ماذا نستخلص من كل هذه التحليلات ؟ إن لفظ ***علماني*** لا يمكن أن يقابله فقهيا لفظ laïc أو لفظ séculaire، لأن لفظ ***علماني*** فرض قسرا لأسباب تاريخية تختلف من مجال إلى مجال آخر. هذه هي النقطة الأولى. لقد أصبحت هذه المقابلة المفروضة على القراء العرب، على قراء العربية، مدعاة لخلط في المفهوم، بل أصبحت حاجزا يمنع من فهم الكلام؛ كلما قرأنا كلاما عن اللائكية laïc أو séculaire عربناه بكلمة علماني وفرضنا عليه بالقسر معنى معارضا للعقيدة، مع أنه لا شيء يدعو إلى هذا الخلط. وهذا التحريف يجعلنا نفهم التاريخ الغربي على غير حقيقته. ونقول إن التاريخ الغربي والمجتمع الغربي فيهما واقع للدعوة إلى الوحدة. وفي الواقع هناك الثنائية. نقول إن المسيحي يقول بازدواجية السلطة وهو غير صحيح. ونقول إن المجتمع الإسلامي يفرض وحدة السلطة، هذا ما نقوله نحن، "وحدوا فربكم واحد". هذا شيء غير صحيح. هناك طموح، هناك تطلع إلى السلطة؛ لكنه لم يحصل أبدا أن توحدت السلطة في التاريخ الإسلامي، أو بعبارة أخرى ما سمي بولاية الفقيه لم يتحقق ذلك أبدا. الولاية كانت دائما بيد السلطان، السلطان يعتمد على الفقيه ويقول بوحدة السلطة على أساس ما يقوله الفقيه، وعلى أساس تركيز وحدة السلطة.

الاستبداد الكنسي واقع تاريخي وكذلك الاستبداد الإمبراطوري. وعملية العلمنة، بمعنى الاعتراف بازدواجية السلطة لم تأت لتأكيد عمل الكنيسة بل ضدا عليها. وهي عملية لم تكتمل، ولا

يمكن أن تكتمل كما نرى ذلك اليوم في مجتمعات غربية كبيرة. ماذا نرى الآن؟ المشكل أننا نجد، في المجتمعات الغربية القائلة بازدواجية السلطة، ثنائية السلطة المذكورة في الدساتير، المدرسة في الجامعات، نزوع الإنسان نحو توحيد السلطة وهو طبع إنساني، إما إعطاء السلطة لرئيس أو إعطاؤها للكنيسة، للكهنوت. نرى ذلك أيضا في إسرائيل. إن ثنائية السلطة والتوازن في السلطة، توازن السلطة المدنية والسلطة العقائدية أمر دائم وهو مع ذلك غير قار وغير مستقر؛ كما أن واقع الازدواجية لا يمكن أن يمحى. إن الدعوة الدائمة والقائلة صباح مساء إن السلطة كلها لله وللرسول، و إنها لابد أن تشخص في شخص واحد هو وارث الله وخليفته في أرضه دعوة مخالفة للواقع. فالواقع يفرض عليك دائما الازدواجية، لأن العادات غير العبادات، ولأن الطبيعة هي غير البركة، والجسد غير الروح، معنى ذلك أن تربية الروح تختلف عن تربية الجسد. قد تفعل بالجسد ما تريد ولكنك لا تؤثر في الروح، وقد تؤثر في الروح ولا تؤثر في الجسد، فالمخزن والشرع شيئان مختلفان بالضرورة. قد نتطلع إلى التوحيد بينهما ولكن هذا غرض بعيد المنال، سيتحقق في الآخرة.

الاستبداد الإسلامي أيضا واقع تاريخ مؤكد، لكنه استبداد علماني، وليس دينيا كما كان الاستبداد البيزنطي والاستبداد القيصري الروسي، استبدادا علمانيا مبنيا على ما يقوله الفقيه. ففي التاريخ الإسلامي ما يؤكد تخصيص السلطة وتوزيعها على النحو الذي نجده في الأديان الأخرى. الأمر كله بيد السلطان الدنيوي.

في ضوء كل هذا هل يجب إيجاد لفظ جديد لمفرد ال***علمانية*** séculaire؟ إذا كانت كلمة ***علمانية*** هي التي تتسبب في كل هذا الخلط الفكري أفلا يمكن البحث عن مفردة جديدة؟ نقول دنيوي /أخروي هو ما يمكن أن يحل محل علمانية. وإذا لم نستطع فلنأخذ الكلمة في حالتها الأصلية ***لائكية***، كما أخذنا الموسيقي والديمقراطية. حاولنا أن نقول الديمقراطية هي الشورى فاتضح أن الشورى ليست هي الديمقراطية، هي شيء آخر، ففضلنا الديمقراطية. فيمكن أن نقول إننا أخطأنا عندما سوينا العلمانية ب laïcité لأننا أفرغنا العلمانية من مضمونها. فلنأخذ كلمة ***لائكية***، وعندئذ لا يمكن أن نقول كما حصل البارحة في الجزيرة : هذا مفكر علماني وهذا مفكر إسلامي. إذا قلت هذا مفكر لائكي يحاور مفكرا إسلاميا ليس معناه أن كل واحد منهما يعارض صاحبه. قد نقبل محاورة مفكر يقول إنه كنسي أو مفكر تابع لزاوية من الزوايا، أو شريف يدعي أن له القدرة على تحويل الماء من طبيعته الأصلية إلى شيء آخر كما سبق أن قال بعض الشرفاء إنه يشرب الخمر ولكن عندما تصل إلى حلقه تتحول إلى ماء.

هل نستطيع أن نصقل لفظ العلمانية ونفرغه من كل ما رسخ به من مفاهيم ومستتبعات زائدة ليست منه حتى نجعل منه مقابلا حقيقيا لمفهوم laïcité ؟ هذا أمر ممكن. قد يقال كما أننا جعلنا من الدين مقابلا ل religion فمن الممكن أن نجعل من كلمة ***لاديني*** مقابلا لlaïc ، لكن هذا يتطلب شيئا سابقا وهو عندما يكون المجتمع قد أصبح علمانيا. عندئذ يفهم الناس جميعا ما أقول، عندما أذكر كلمة ***علماني***، هذا ليس هو الوضع الذي نحن فيه الآن. فالأمر متعذر الآن سيما بعد التطورات الحاصلة أثناء العقدين الأخيرين. وبتجربتي الخاصة مع تحليل المفاهيم، تدعوني إلى التشاؤم، فقد حاولت توضيح بعضها حتى يتمكن المثقف المغربي من تحرير فكره من المسبقات. وشكرا لكم.

---

*-نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ عبد الله العروي بكلية الآداب بمكناس في إطار أنشطة مجموعة البحث " أكاديميا : التعدد والاختلاف".